الأمصار الاسلامية الأولى
دورها في نشأة
الحضارة الاسلامية العربية وتطورها

أ. د. عثمان سيد أحمد اسماعيل البيلي
مدير مركز الوثائق والدراسات الإنسانية
جامعة قطر

الأمصار الاسلامية الأولى
دورها في نشأة
الحضارة الاسلامية العربية وتطورها

أ . د . عثمان سيد أحمد اسماعيل البيلي

مداخلُ ثلاثة لا يفتأ بعض المستشرقين وتلامذتهم من التركيز عليها صراحة أو ضمنا عند معالجة تاريخ الإسلام وحضارته . تلك المداخل هي بداوة الدين ونبيه ، وبداوة الفتح والفاتحين ، ومن ثم انهزام الفاتحين أمام حضارة المفتوحين ، ليكون الناتجُ الحضاري من الفتح تقديم حضارة العالم القديم المفتوح في ثوب جديد ، هو التعبير عنها بلغة الفاتحين ، أو على أحسن الفروض ، تجديد شباب حضارات العالم القديم بحفظها ونقلها ، إلى أن ردت البضاعة إلى أصحابها سالمة ، لتجيء عصورُ النهضة في الغرب المهيأة لحضارة العالم الحديث .

تتكرر هذه الصورة عن بداوة الإسلام ، وبداوة الفتح ، حتى أصبح الكثيرون لا ينظرون إلى تاريخ الإسلام ، الا من خلال خَيْلٍ أو نُجبٍ تُمتَطى ، ورايات تُرفع ، وسيوفٍ تُستلّ . أو من خلال الحديث عن الجزية ، وعن الموالي ، وعن الذميين . ولأن المداخلَ هي هذه البداوة المركبة ، لا ينظر لفترة البعث الا من زاوية صراع الدعوة للبقاء والانتشار ، عن طريق البيعات أو الأحلاف والمصالحات ، أو السرايا والغزوات والفتوح ، في صور تكاد تُخفي حقيقةَ حضرية مولد الرسول ﷺ ونشأته ، وحضرية مجتمعه وبيئته ، وحضرية نشأة الرسالة وتطورها . بل وأهم من ذلك حضرية محتواها وتوجهها . حتى نظام المدينة ، القائم على وثيقة الأمة التي كانت بحق الصورة المثلى للمجتمع المسلم ، المحكوم بدستور والمفتوح بالمفهوم الحديث ، لم ينظر إليها الا من هذه الزاوية .

ولا شك أن بعض المسلمين ، ومنهم عرب ، قد لعبوا دوراً في تعميق هذه الصورة ، عندما نظروا إلى اعداد الجيوش الفاتحة وعتادها ، دون الالتفاف إلى

إنها ، وإن كانت قاعدتها من البدو أي الأعراب ، رعاة الشاة والإبل وآكلة الضب ، فإن قيادتها كانت مسلمةً ، بل ومن خيرة صحابة الرسول ﷺ ، وأنها كانت تقاتل تحت راية الإسلام ، وباسمه ومن أجله ، تقاتل في سبيل الله صفا كالبنيان المرصوص . وهذه الصيغة من القتال لم يعرفها العرب من قبل ، صيغة أصلها الصف المستقيم في الصلاة كما أشار إلى ذلك المستشرق الأب فلهاوزن[1] . وأنها ما كانت تسعى للفتح من أجل الاستغلال أو الاستعباد أو الهجرة إلا إلى الله ، بل كانت تقاتل في سبيل الله من أجل احياء كلمته التي تعني الحرية والعدل والمساواة ، الحرية حتى في الدين نفسه . ان حروب الفتوحات كلها كانت حروب دعوة وتحرير ، حررت الشام ومصر و « افريقية » والمغرب من الاستعمار الروماني البيزنطي ، وحررت الجزيرة وفارس من سلطة آل ساسان ، وقد عفى عليها الزمن وتقاذفتها الفتن والصراعات ، ودعتهم للدين الحنيف .

والهجرة التي تبعت الفتوحات لم تكن كهجرات القديم ، يذوب فيها العرب ولم يكن لهم من الهوية الا البداوة التي يحسب الكثيرون ان كلمة « عربي » تعنيها ، في العالم المفتوح دينا ودنيا . ولكنها كانت هجرة عرب مسلمين ، اذا بت المجتمعات المفتوحة في دينها وحضارتها في العالم الإسلامي كله ، وفي لغتها أيضاً في العالم السامي الحامي المفتوح ، بعد أن كان يدين بالمسيحية ، ويتحدث النبطية والسريانية والقبطية والنوبية والبربرية مع الاغريقية والفارسية[2] . وهذه قضية أخرى ، ولكنها ذات صلة وثيقة بموضوع هذه الورقة ، وهو دور الامصار الإسلامية الأولى في نشأة الحضارة الإسلامية العربية وتطورها .

ولقد قُدِّمت « الإسلامية » « على » « العربية » في وصف الحضارة تقديم الروح على الجسد ، تقديم المضمون على الشكل ، فان ما يميز الحضارات القديمة والحديثة على السواء محتواها لا لغتها . إن الله عز وجل الذي جعل رسالته الخاتمة الإسلام ، وجعل القرآنَ كتابَها عربياً ، جعل من آياته اختلافَ الألسنةِ والألوان[3] . ولعل من معجزاتِ الرسالةِ الخاتمة أنه لم يمض من عمرها الكثير بعد الفتح ، إلَّا وكان جل رعايا الدولة الإسلامية من غير العرب ، ممن لسانهم أعجمي وأصبح

دينهم الإسلام . ولا يخفى على أحد أنه ، بفضل الإسلام ، تأثرت العديد من لغات الشعوب المسلمة بلغة القرآن ، شكلاً ومفرداتٍ ومصطلحاتٍ ومضموناً ، حتى صار البعضُ يطلق على لغاتٍ كالفارسية والأردية والكردية والتركية والسواحلية والهوسا وغيرها لغاتٍ إسلامية . وصار الحرف العربي الأداةَ الوحيدةَ للكتابة ، بتعديل أو بلا تعديل ، حتى كانت الهجمة الاستعمارية التي حاولت ، ولا تزال تحاول ، ازالته حتى في كتابة العربية نفسها .

ويدخل في هذا الاطار ، اطار البداوة والسيف والفتح ، ما يراد أن يُفهم منه وهو ان الإسلام انما انتشر بالسيف . ومن المؤسف حقاً ان هذه الصورة ، أو هذه الفكرة ، التي تخلط بين حركة الفتح أو حركات الفتح ، وحركات أو حركة الدخول في الإسلام ، لا تقتصر هي الأخرى على غير المسلمين . بل إنك تجد كثيراً من عامة المسلمين ومتعلميهم من يخلط ، بين جهاد دعته ضرورة الحفاظ على الجماعة ، وحروب فرضتها ظروف نشأة الأمة ، فالدولة فالخلافة ودار الإسلام ، وبين انتشار الإسلام . ولا شك ان الجهاد ، بعد ان أُذنَ به ، مكّن لهذه كلّها من البقاء فالانتشار فالفتوحات فالاستمرار . لكن اسلام العالم المفتوح لم يزامن الفتح . لقد كان ذلك نتيجة لتحولات تمت بعد الفتح بكثير . لم تكن نتيجة قهر فَرَضَ الدينَ على شعوب العالم المفتوح . ولم يَكُن هروباً من جزية تَقصم الظَّهر ، وتغرى بالخروج عن الدين . وتلك أيضاً قضايا هامة ترتبط بأمر هذه الورقة قد عالجها العديد من الباحثين . وبالنسبة للجزية والإسلام فلعل خير ما يشار إليه في هذا السبيل كتاب « دانيال دينيت » « الجزية والإسلام » الذي نقله للعربية فوزي جاد الله وهما مسيحيان . أما بالنسبة لعدم القهر بأي اسلوب آخر فيكفي الاشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لا اكراه في الدين ﴾[٤] الآية . وقوله تعالى ؛ ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٥] وما نعرفه من تصنيفات رعايا دولة الخلافة إلى مسلمين وذميين . وكلمة ذميين أيضاً تحتاج إلى الرجوع إلى فهمها الصحيح بمعنى ان المشار إليهم أهلُ ذمةٍ وعهدٍ يتيح لهم ، بل ويؤمن لهم ، حريةَ العقيدة والعملِ والحياة الكريمة ، لا بمفهوم المواطنين من الدرجة الثانية . ومن الشواهد أيضاً بقاء أقدم الكنائس والصوامع في دار الإسلام حتى يومنا هذا .

يرتبط بما تقدم من مداخل لمعالجة التاريخ الإسلامي النظرة إلى الأمصار ، التي لا ينظر إليها عند نشأتها في الغالب الأعم الا كجزء من أدوات الفتح ، ومقار الحكم ، معسكرات اقتضتها ظروف الفتح ، وعواصم فرضتها ضرورة البقاء لحكم المفتوح من البلدان ، وتسهيل عمليات التوسع في الفتح فيما بعد ، شرقاً وشمالاً وغرباً : معسكرات للجند ، وحاميات للسلطة والدولة . سكانها المقاتلة ، البدو ، الاعراب الذين أتوا خالين من « حضارة » ، ليتحضروا شكلا ومضمونا في العالم المفتوح . ومن هنا كانت مقولة أن العربَ هزموا الفرس والروم وانهـزموا لحضاراتهم . حتى المؤرخ الكبير توينبي ، على الرغم من اعتداله وسعة معرفته ، لم ير في حضارة الإسلام الاَّ دورةَ من دوراتِ ابتعاث حضارة العالم القديم . طبق نظرية ابن خلدون في العلاقات بين البدو والحضر فرأى ان الفتوحات كانت بمثابة الهزة التي أكسبت العالم القديم دماءَ حارةً جديدةَ ، أعادت الحياة لجسمه المهترىء ، لتعود حضارته في شكل جديد ، ولعله لو عاد فنظر في ابن خلدون وحده وأثره عليه لقنع ان ابن خلدون بعضُ سماتِ حضارة إسلامية عربية جديدة وأصيلة .

نعم لقد حظيت الأمصار بالعديد من الدراسات ضمن منظومة دراسات العالم الإسلامي ، جوانب العمران والتمدن فيه . ولكن جل الاهتمام كان للنواحي العمرانية ، أو الاجتماعية ، أو الاقتصادية أو السياسية ، ومع ان محصل هذا هو دورها الحضاري ، فإن جل هذه الدراسات لا تربط بين هذه الموضوعات من جهة ، وإن فعلت لا تفعل ذلك إلاَّ من خلالِ نظرتِها للعالم المفتوح دون الرجوع إلى حقيقة ان الأمصار الإسلامية كلها كانت في جوهرها انتقالاً أو نقلا لعالم أُمَّيْ الأمصار الإسلامية كلها في الحجاز : « أم القرى » « مكة » و « يثرب » « مدينة الرسول » . ولك ان تعاود قراءة ما كتبه « اكسافيير دو بلانول »[٦] أو « شارل بلا »[٧] أو « البرت حوراني »[٨] ومن معه وغيرهم لترى ذلك .

إن الأمصار لا تزال تحتاج إلى دراسة عميقة ، متعددة الجوانب ، متأنية تقوم بها فرق بحث لا أفراد . وإذا كانت سرعة الفتوحات وثباتها من معجزات الإسلام ،

فلا شك إن معجزة الفتوحات الكبرى هي أنها حافظت على العالم المفتوح واسلمته ؛ وعربت بلاد قلب دار الإسلام كلها ، تعريباً يكاد يكون كاملا ، حتى أصبحت الآن ما نعرفه بالعالم العربي ولم تكن كذلك من قبل . وإنها ، في انفتاحها لحضارات العالم المفتوح ، لم تكن غفلة من « حضارة » بل كانت تحمل وتمثل ، روح « حضارة » الإسلام مما جعلها تهيمن على الموروث الحضاري للعالم القديم ، تنظر إليه من منظار القرآن والسنة والذوق العربي الذي هذبه القرآن وصقلته السنة .

وإذا كان قد رؤ ى انسجام المداخل الثلاثة التي بُدأ بها الحديث فلا بد ، لكي ينسجم ما يقال عن الأمصار الأولى ودورها في نشأة الحضارة الإسلامية العربية وتطورها ، من العودة إلى أصل هذه الأمصار الذي أشير إليه من قبل . وفي البداية لا بد من نفي البداوة عن الإسلام ورسوله وعن الفتح والفاتحين . وهذا أمر لا يحتاج إلى كبير عناء . فالرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم ، ولد بمكة ، وقضى فيها جل عمره قبل البعثة ومن ثم الهجرة منها . وحتى فترة رضاعته وسنى صباه ، التي قضاها مع حليمة السعدية في بني سعد ، انما كانت في اطار النمط المكي للتربية ، في مجتمع شديد الصلة بمكة ، وفي مكان مرتبط بمكة وليس منها ببعيد[٩] .

ومكة من أعرق المدن على الاطلاق . يكفي ما جاء في القرآن الكريم .

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ آل عمران (٩٦ ـ ٩٧) .

والقرآن الكريم يشير إلى مكة بأنها أم القرى :

﴿ وهذا كتب أنزلنـه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القري ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ الأنعام (٩٢) .

لقد أشار برنارد لويس في احدى ملاحظاته حول كلمة « أم القرى » أنها مستلفة

من الأغريقية متروبولس Metropolis . ولا شك ان لويس ، وهو أستاذ كاتب هذه الورقة ، قد اشتط في تخيله هذا ، ولا غرابة ، فهو ينطلق من ان القرآن من عند محمد ﷺ وليس من عند الله . ولكن حتى إذا كان الأمر كما ذهب إليه فإن ذلك يؤكد « مدنية » أو حضرية مكان ميلاد الرسول ﷺ . ومهد الرسالة الأول . ولا يكفي ان يقال ان مكة كانت مدينة فقط . لا بد من الاشارة إلى أنها كانت مركزا حضاريا متقدما بكل مقاييس الحضارة ، رغم سيادة قيم الجاهلية في مجتمعها . والجاهلية التي يعنيها الإسلام لم تكن قاصرة على العرب ، بل كانت تسود كل قيم العالم القديم حتى كانت الرسالة الخاتمة . وليس هنا مجال التوسع في الحديث عن مكة ، ولكن لا بد من الاشارة هنا في انها تعتبر مع « المدينة » من الأمصار الإسلامية الأولى ، وان كان السائد ، وما تركز عليه هذه الورقة هو امصار الفتح الأولى الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وبينها الجابية ـ دمشق . هام ان ينظر إلى مجتمع مكة المعقد المركب . قريش الداخل وقريش الخارج : القبائل الأخرى ، دار الندوة ، البيت العتيق وما تبعه من نظم وادارات ترتبط بالحجابة ، والرفادة ، والسقاية والحج . مكة تسودها قريش ، بمكانتها بين العرب ، وبدورها الاقتصادي التجاري الذي ينتظم بلاد العرب كلها ، من اليمن حتى الشام ، ومن الحجاز حتى نجد . قريش باحابيشها ، وأحلافها ، وبيوتاتها المتنافسة في كل شيء . مكة بسوق عكاظها ، والعرب بأحلافهم ومواسمهم وأشهرهم الحرم . مكة بما بقي بها بالبيت من اشارات لملة إبراهيم ومن ثم الاحناف قبل الإسلام . مكة وما بها من معرفة بديانة موسى وعيسى والتوراة والانجيل . مكة بشعرائها وكهانها . ترى ماذا بقي من حضارات العالم القديم الذي لم تعرفه مكة أو لم يعرفه العرب . ثم مكة بقرآنها المكي وآثار الرسول ﷺ وأصحابه (رضي الله عنهم) فيها . اين البداوة هنا وفي القرآن الكريم والسنة الكثير مما يقلل من شأن البدو (الأعراب) والبداوة[١٠] .

يذكر الجاحظ في رسالة مدح التجار « وليس قولهم قرشي كقولهم هاشمي وزهري وتيمي لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريش فينسبون إليه . ولكنه اسم اشتق

لهم من التجارة والتقريش فهو أضخم اسمائهم وأشرف أنسابهم وهو الاسم الذي نوه الله تعالى به في كتابه العزيز . . . » ص ٢٤١[١١] .

وتجيء مدينة الرسول ﷺ يثرب التي تغير كل شيء فيها بعد الهجرة لتصبح مصر الإسلام الأول ، ولتكون الصورة المثلى Prototype, IDEAL التي قامت على شاكلتها أمصار الفتح . في يثرب بعد ان أصبحت مدينة الرسول ، مدينة الإسلام الأولى ودار هجرة المسلمين الأولى مع الرسول ﷺ ، يتحدد شكل المصر الإسلامي ووظيفته المركبة ، التي تتعلق بالدعوة ، وبالدولة ، وبالجماعة وبالأمة ؛ وبالعالم في منظومة علاقات الدولة الإسلامية الخارجية[١٢] . يجدر ان يذكر ان يثرب قد بدأت تتحول للإسلام قبل الهجرة مع بيعتي العقبة الأولى والثانية ، فكانت الهجرة لبلد دخله الإسلام وبايع على حماية الرسول ﷺ ودينه ، مما يحمي عنه نفسه وماله وعرضه وحماه . ومع هذا لا بد من النظرة بتمعن لقصة دخول الرسول ﷺ يثرب ، بعد أن قضى أربع عشرة ليلة بقباء بنى فيها أول مسجد أسس على التقوى . يذكر صاحب « حدائق الأنوار ومطالع الأسرار » .

« ثم ارتحل من قباء يوم الاثنين أيضاً ، راكبا راحلته وقد أرخى لها الزمام . وكان كلما حازى دارا من دور الأنصار اعترضوه وقالوا : « هلم يارسول الله ! » « إلى العدد والعدة والمَنَعة » فيقول لهم « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » « وقد أرخى لها زمامها وما يحركها . وهي تنظر يميناً وشمالاً . والناس كنفيها ـ يعني جانبيها ـ حتى بركت حيث بركت على موضع باب مسجده ﷺ . ثم ثارت وهو عليها ، فسارت حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري « رضي الله عنه » ، وهو أحد بني النجار . ثم ثارت وبركت في مبركها الأول ، وألقت جرانها بالأرض وأرزمت . فنزل ﷺ عنها وقال هذا هو المنزل ان شاء الله تعالى »[١٣] .

الوضع الجديد في المدينة كان يعني ان الرسول ﷺ سيكون قلب الجماعة الجديدة وقبلتها . وإذا كانت الجماعة ستتحول إلى أمة ، والأمة إلى دولة وتصبح المدينة دار الدولة الجديدة وحرمها ، والرسول فيها النبي الحاكم ، فان داره ومسجده وما حولهما يصبحان مع الزمن قلب تلك المدينة . في هذا التطور السريع

المتلاحق تحددت هوية المدينة الإسلامية ، وشكلها ، ووظيفتها ، وطبيعة الدولة الإسلامية وتوجهها . ولم يكن مجتمع المدينة أقل تعقيدا وتنوعا من مجتمع مكة ، وان خلا من بيت عتيق أو أوليقاركية ، كتلك التي كانت تسيطر على المجتمع المكي . كانت يثرب مدينة زراعة وتجارة وصناعة . وكان بها الأوس والخزرج ، وكان بها قبائل من اليهود . وكان للنصرانية وجود بكل من المدينة ومكة . وإذا اتضح الشكل الحضري لكل من مكة والمدينة في ما ذكر ، فإن وثيقة المدينة بأبعادها الدينية والسياسية والاجتماعية والجغرافية ، وما انبنى عليها من صلات وعلاقات وأعمال ، انما تشكل في كل ذلك المحتوى الحضاري للجماعة المسلمة ، ولمجتمعها المفتوح ، المركب ، المتنوع ولدولتها[١٤] . وعلى الذين يحسبون ان انفتاح المسلمين على حضارات العالم المفتوح وموروثاته الدينية والفكرية ، إنما تم بعد الفتوحات ان يعيدوا النظر في مجتمع مكة والمدينة ، وفي القرآن الكريم وما جاء به من اشارات واثبات للمواجهات بين كل محصل الفكر الديني قديمه وحديثه . والقرآن لا يخاطب العرب الأميين وحدهم ، وإنما يخاطب في تحدي متكرر ، أهل الكتاب ، والدهريين ، والصائبة ، والمجوس وأهل كل فكر ودين[١٥] . وفي القرآن الذي « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (الأنعام ـ ٣٨) أحسن القصص عن الأولين .

ما يراد الخلوص إليه هو ان المجتمع الإسلامي في المدينة ، ومكة بعد الفتح ، كان يحمل في طياته الصورة الأصل لما سيكون عليه المجتمع الإسلامي بعد الفتوحات . وليس المقصود هنا المضمون فقط وانما الشكل إلى حدود بعيدة ، فثمة صلة لا تخطئها البصيرة بين وظيفة الشيء وشكله في أغلب الأحيان . ولا شك ان تغيرات مادية كثيرة وكبيرة قد حدثت في المجتمعات الإسلامية ، في مكة والمدينة ، وفي الأمصار ، في المأكل والملبس والمسكن ، وفي جوانب عديدة من الحياة ، ولكن الملفت للنظر ان التغيرات الجوهرية التي حدثت في العالم المفتوح ، على كثرة سكانه ، واتساع أراضيه وتنوع ثقافاته وعمرانه ، بفضل الفتوحات ، أي بفضل الإسلام والمجتمعات المسلمة ، لتؤكد ضرورة إعادة النظر

في من كان الغالب والمغلوب حتى في الجوانب الحضارية ان كان ثمة غالب ومغلوب في هذا السبيل .

من الطريف ان الجاحظ يذكر في كتابه « البيان والتبيين » ان أهل البصرة ، كانوا أفصح لغة وأدق تعبيراً من عرب مكة والمدينة والكوفة الذين أخذوا يستعملون في حديثهم العديد من الألفاظ الوافدة مع الموالي والأماء ، في حين ظل أهل الأمصار يتمسكون بما أتوا به من الجزيرة ، وبما تأثروا به من قراءة القرآن الكريم ودراسته . يقول الجاحظ :

« حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن رَوْح قال : قال أهل مكة لمحمد بن المُناذر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المُناذر : أما الفاظنا فاحكي الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة . فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم . أنتم تسمون القدور بُرمة وتجمعون البرمة على بِرام . ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور . وقال الله تعالى عز وجل ﴿ وجفانٍ كالجوابي وقدورٍ راسيات ﴾ . وأنتم تسمون البيت على البيت عُلِّيَّة وتجمعون هذا الاسم على عَلالِيّ ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غُرُفات وغرف . وقال الله تبارك وتعالى ﴿ غرفٌ من فوقها غرفٌ مبنية ﴾ . وقال : ﴿ وهم في الغرفاتِ آمنون ﴾ . وانتم تسمون الطلع الكافور والأغريض . ونحن نسميه الطَّلْع . قال تعالى : ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ . فعد عشر كلمات لم أحفظ منها إلاَّ هذا . ألا ترى أن أهل المدينة ، لما نزل فيهم ناس من الفرس من قديم الدهر ، علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخِربز ، ويسمون السميط الرَّزدَق . ويسمون المَصُوص المَزُور . ويسمون الشِطْرَنج الأُشتْرَنج ، في غير ذلك من الأسماء . وكذلك أهل الكوفة ، فإنهم يسمون المسحاة بال ، وبال بالفارسية .

« ولو عَلِقَ ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه ، إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب »[١٦] .

بقي الرسول ﷺ ثلاثة وعشرين عاما بعد البعث ، قضى منهم ما يزيد على

العشرة في المدينة . كان شغله الشاغل في المدينة التبليغ ، وخلق جماعة مؤهلة لتلك الرسالة ، ودولة تحمي تلك الجماعة ، في اطار مجتمع انساني متكامل مفتوح . وبطبيعة الأشياء شغل الدارسون بغير العادي من حياة المجتمع المسلم ؛ شغلوا كثيراً بالغزوات والحروب والفتوح ، ولا جدال في أهمية هذه في حياة الجماعة وتاريخها وسيرة رسولها ﷺ . لكن وظيفة الرسول ﷺ الأولى والأخيرة هي التبليغ وتهيئة الأمة لحمل الرسالة :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . (الجمعة ٣) .

وإذا تأكد ان معالم المدينة الإسلامية أو المصر الإسلامي قد تحددت ، كما تحددت وظيفتها بمدينة الرسول ﷺ ، لرأيت ان وسطها كان بيت النبي ﷺ ، وهو رأس الدولة الحاكم القاضي الامام النبي ، يلتصق به مسجده الذي تتم فيه أهم وظائف المدينة ؛ فهو مكان العبادة ، وهو مكان الاتصال العام ، وهو مركز التجمع ، وهو دائرة التعليم ؛ ليس فقط المتعلق بأمور الدين وإنما أيضاً ما يتعلق بأمور الدنيا من القراءة والكتابة والحكمة والمعرفة . حتى اللعب بالحراب مارسه بعض الحبش بالمسجد والرسول ﷺ ينظر ومعه أم المؤمنين عائشة . ومن الملفت للنظر ان يكون للتعليم وما يتعلق به تلك المكانة المتميزة عند المسلمين . فالقرآن الكريم يحذر من الخروج للجهاد دون الاهتمام بالتعليم .

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (التوبة ١٢٢) . كما يوصي بكتابه الكبير والصغير في الأشياء دون سأم أو ملل .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . . ولا تسئموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ (آية الدين البقرة الآية ٢٨٢) . وهي أطول آية في القرآن الكريم .

والرسول الكريم ﷺ يفادي الأسرى بالتعليم ؛ ويحث على العلم فيجعل طلبه فريضة ؛ ويحث على الهجرة في طلبه وعلى أخذ الحكمة أي المعرفة الصالحة

حيثما وجدت ويأمر بتعلم اللغات كما فعل عندما حض زيد بن ثابت على تعلم العبرية والسريانية[١٧] . وإذا جاز لنا أن ننظر في أمر فك أسر الكتابة والقراءة من الكهانة والسحر ، وخلق مجتمع متعلم خاصته وعامته ، لوجدنا ان المجتمعات المسلمة هي الأُولى تاريخيا في قائمة هذا الشرف . ولا ينسى في هذا الصدد ان الإسلام ليس به كهانة ، ومن ثم طبقة تترك لها الجماعة وظيفة التعليم ، أو التوسط بينها وبين الله . المجتمع المسلم اذن بطبيعته عالم متعلم . والتقصير في هذا حيث وقع انما يعود على المسلمين أنفسهم . والإسلام جاء ثورة على الجاهلية وعلى الجهل على حد سواء .

لعلنا نتدارك ما فات من تعريف بالمصر فنورد ان المصر لغة هو الحاجز بين الشيئين ، أو بين الأرضين . جمعها مصور ، أو امصار وهي ما يسود في المصادر العربية الإسلامية لجمع مصر . المصر أيضاً تعني القرى الكبيرة التي فيها الدور والأسواق والمدارس والمرافق العامة . بصورة أخرى المصر تعني المدينة . وقد غلب اسم « مصر » على بلادها في أسفل وادي النيل فصار القطر كله يعرف بها . والمصريون عندما يتحدثون عن مصر انما يقصدون القاهرة وهي أم مدائن ، أم امصار بحق ، بل هي في قديمها وحديثها خير مثال لأم القرى « المتروبولس » . وقد ورد ذكر مصـر أربع مرات في القرآن الكريم في سور يوسف (٢) ويونس (١) والزخرف (١) بينما وردت كلمة مصر على الاطلاق مرة واحدة في سورة البقرة . (يوسف ٢١ و ٩٩ . يونس ٨٧ والزخرف ٥١ . البقرة ٦١[١٨] .

ولا تذكر الحضارة المصرية أو الحضارة الأغريقية أو الحضارة الرومانية ، الَّا وتذكر ما ارتبطت بتلك الحضارات من أمصار ، كانت إلى حد بعيد تعكس طبيعة الحضارة وطبيعة مجتمعها . ولك أن تعيد النظر في أمر مدن مصر العواصم كطيبة وممفيس وهليوبولس وبابليون والجيزة وغيرها ، ثم تنظر في الآثار المصرية من أهرامات وتماثيل ومعابد لتتصور الفراعنة ومصر الفراعنة . وكذلك الحال بالنسبة لأثينا واسبرطة بالنسبة للاغريق وروما وبيزنطة بالنسبة للاغريق والرومان لتلاحظ كيف ارتبط شكل المدن بوظائفها ، وبالحضارة ومضمونها . ولا تخرج

الامصار الإسلامية من هذا النسق في الصلة بين المدن وما ارتبط بها من حضارات .

لكن لعل أهم ما يلفت النظر مرة أخرى هو أن هذه المدن المذكورة إنما نمت في بطء ، وكان ما ارتبط بها من حضارات نسيج قرون ، في حين ان الأمصار الإسلامية مصرت في عجلة ونمت بسرعة فائقة حيث انشئت في بيئات وبين جماعات لم تكن من الإسلام في شيء ولم تكن من العرب الا في القليل . ان ما أشير اليه من قبل ، في ان هذه الأمصار كانت صورة لأصل تقلده في اصرار ووعي ، وصاحبة رسالة كانت تقوم بها بعزم واقتدار ، هو السر في بلوغها ما بلغت في القيام برسالتها وفرض هويتها الوافدة معها مع الفتح ، هوية الإسلام والعروبة وما قام عليهما من حضارة .

وكأنما أحس المسلمون الأوائل بدور هذه الأمصار الأولى منذ التفكير في تأسيسها ، وبعد ان أصبحت حقيقة واقعة لا تزال تصارع الزمن في عصرنا الحديث[١٩] . لقد بدأ تأسيس الأمصار مع الفتح ، في عهد الخليفة الراشد عمر (رضي الله عنه) ؛ والفضل يرجع إليه في التوجيه لكيفية اختيار مواقعها وتحديده ، وتأكيد أهدافها ورسالتها . لقد أسست لتكون مقارا للمقاتلة ، ومراكز لادارة الفتح بالحفاظ على حوزة المفتوح من البلدان والسير بالفتوحات قدما ما تيسر ذلك ، في تعاون وتنسيق في ما بينها ، وفي صلة مستمرة بالعاصمة المدينة وبالخليفة عمر (رضي الله عنه) . وعمر (رضي الله عنه) هو الذي لخص دور العرب ومن ثم وظيفة الأمصار في قولته « العرب مادة الإسلام » . فالاهتمام والعناية بهم وبأمورهم ، إنما أصله اهتمام وعناية بالدعوة بالإسلام . وكانت الفتوحات التي قامت على جهاد المقاتلة من الأمصار ، وما كان يأتي إليهم في هجرات متلاحقة للاستقرار فيها ، أو عبوراً بها إلى مواطن جديدة في أقصى المشرق الإسلامي إلى أقصى المغرب الإسلامي حتى أنك تجد ان حجم الهجرة من الجزيرة ومن ثم النمو في الأمصار فرض على الخليفة الراشد علي (رضي الله عنه) الهجرة إلى الكوفة ، وقد أصبحت في أيامه عاصمة للخلافة بدلا من « المدينة » التي عجزت عن أن تصد عن الخليفة الراشد الثالث عثمان (رضي الله عنه) مخاطر فتنة لعبت الدور الأول

فيها أمصار الفسطاط والجابية والكوفة والبصرة .

لحظت كيف حدد الجاحظ في النص الذي ذُكر من قبل موقعي البصرة والكوفة . البصرة في أدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب ، والكوفة بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب[٢٠] . يذكر يا قوت في معجم بلدانه عن البصرة ما يلي[٢١] :

« البصرة وهما بصرتان ، العظمى بالعراق وأخرى بالمغرب . وأما البصرتان فالكوفة والبصرة . قال المنجمون البصرة طولها أربع وسبعون درجة ، وعرضها احدى وثلاثون درجة ، وهي في الأقليم الثالث . البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب . . . وقال غيره البصرة حجارة رخوة فيها بياض . البصرة حجارة صلاب وإنما سميت بصرة لغلظتها وشدتها . تقول ثُوب ذو بُصْر وسقاء ذو بُصْر إذا كان شديداً وجيداً . . . الحجارة في أعلى المِربَد بيضاء صلاب . . . يقال ان المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها فقالوا ان هذه أرض بصرة يعنون حصبة فسميت بذلك . وذكر بعض المغاربة ان البصرة الطين العلك وقيل الأرض الطينية الحمراء . . . النسب إليها بصرى (بالكسر) .

« وأما فتحها وتمصيرها فقد روى أهل الأثر ، ان عمر بن الخطاب قد أراد ان يتخذ للمسلمين مصرا . وكان المسلمون قد غزوا البحرين توج ونو بندجان وطاسان . . . رجل من بني سدوس يقال ثابت فقال يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة ، فيه قصر ، وفيه مسالح للعجم ، يقال له الخُرَيْبة ، ويسمى أيضاً البُصيرة ، بينه وبين دجلة أربع فراسخ ، له خليج بحري فيه الماء إلى أجمة قصب فأعجب ذلك عمر وكانت قد جاءته أخبار الفتوح من ناحية الحيرة » .

« قال وبني المسلمون بالبصرة سبعة دساكر اثنتان بالخريبة واثنتان بالزايوقة وثلاث في موضع دار الأزد اليوم . غير هذه الرواية أنهم بنوها من لبن ، في الخريبة اثنتان وفي الأزد اثنتان وفي الزايوقة واحدة وفي بني تميم اثنتان . . . لما دخل المسلمون الأُبُلَّه وجدوا فيها خبز الحُواري . . . ولم يكن فيهم أحد يحسب ويكتب الاَّ زياد فولاه قسم ذلك الغنم ، وجعل له درهمين وهو غلام في رأسه ذؤابة » .

يذكر ياقوت أيضاً[٢٢] .

« ثم إن عتبة بن غزوان ، كتب إلى عمر يستأذنه في تمصير البصرة ؛ وقال أنه لا بد للمسلمين من منزل إذا اشتا شتوا فيه ، وإذا رجعوا من غزوهم رجعوا إليه . فكتب إليه ان ارتد لهم منزلا قريبا من المراعي والماء ، واكتب إلى بصفته . فكتب إلى عمر اني وجدت أرضا كثيرة القضة ، في طرف البر إلى الريف ، ودونها منافع ، وفيها ماء ، وفيها قصباء . والقضة من المضاعف الحجارةُ المجتمعة المتشققة ، وقيل أرض قضة ذات حصى . . . قال ولما وصلت الرسالة إلى عمر قال هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب . فكتب إليه ان انزلها فنزلها وبنى **مسجدها** من قصب **ودار امارتها** دون المسجد في **الرحبة** التي يقال لها رحبة بني هاشم وكانت تسمى الدهناء وفيها **السجن والديوان وحمام الأمراء** بعد ذلك لقربها من الماء . فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان . . . كان تمصير البصرة في سنة ١٤ من الهجرة قبل الكوفة بستة أشهر » .

وقد روى في غير هذا الوجه ، أن الله عز وجل ، لما أظفر سعد بن أبي وقاص بأرض الحيرة وما قاربها ، كتب إليه عمر بن الخطاب ان ابعث عتبة بن غزوان إلى أرض الهند وكانت الأبلة يومئذ تسمى أرض الهند ، فلينزلها وليجعلها قيروانا للمسلمين ، ولا يجعل بينه وبينهم بحرا . فخرج عتبة في ثمانمائة رجل حتى نزل موضع البصرة ، فلما افتتح الأبلة ضرب قيروانه وضرب للمسلمين أخبئتهم . وكانت خيمة عتبة من أكسية . . . بني رهط منهم فيها سبعة دساكر من لبن .

وفي أمر الولايات بالامصار يردد يا قوت[٢٣] :

« قال عمر لعمري **ان أهل المدر لأولى ان يستعملوا من أهل الوبر** . يعني بأهل المدر المغيرة لأنه من الطائف وهي مدينة ، وبأهل الوبر مجاشع (بن مسعود المسلمي) لأنه من أهل البادية . وأقر المغيرة (بن شعبة) على البصرة . . . ثم استعمل عمر ابا موسى الأشعري سنة ١٦هـ وقيل سنة ١٧ . وُوَلِيَ أبو موسى **والجامع** مجاله وحيطانه قصب فبناه أبو موسى **باللبن** وكذلك **دار الامارة** . وكان

المنبر وسطه . وكان الامام إذا جاء الصلاة تخطى رقاب الناس . فلما استعمل معاوية زيادا على البصرة قال لا ينبغي للأمير ان يتخطى رقاب الناس . فحول **دار الأمارة** من الدهناء إلى قَبْل **المسجد** وحول **المنبر** إلى صدره فكان الامام يخرج من الدار من الباب الذي في حائط القبلة . ولا يتخطى أحداً . **وزاد** في حائط المسجد **زيادات كثيرة** وبنى **دار الامارة** باللبن ، وبنى **المسجد** بالجص وسقفه بالساج . فلما فرغ من بنائه جعل يطوف عليه وينظر إليه ومعه **وجوه البصرة** فلم يعب فيه إلّا رقة الأساطين . قال ولم يؤت منها قطُّ صدعٌ ولا ميلٌ ولا عيب . وفيه يقول حارثة بن بدر الفداني » .

بنى زياد لذكر الله مصنعة ... بالصخر والجص لم يخلط من الطين
لولا تعاون أيدي الرافعين له ... إذاً ظننّاه أعمال الشياطين

« وجاء بسواريه من الأهواز . وكان قد ولى بناءه الحجاج بن عتيك الثقفي **فظهرت له أموال وحال لم تكن قبل فيه** . قيل يا حبذا الامارة ولو على الحجارة » .

« البصرة في ولاية خالد بن عبد الله القسري فرسخان وعرضها فرسخان إلا دانق . . . مقاتلة العرب ايام زياد ٨٠ ألف عيالاتهم ١٢٠ ألف . . . مقاتلة الكوفة ٦٠ ألف عيالاتهم ٨٠ (عرفت بكثرة الحمامات) » .

« قيل عن البصرة ، أقوم أرض الله قبلة ، قارؤها أقرأ الناس ، وعابدها أعبد الناس ، وعالمها أعلم الناس ، ومتصدقها أعظم الناس صدقة » .

لعل النص قد طال وإن كان فيه اختزال شديد لما تعرض له مما كتب يا قوت عن البصرة . ولا يخفى فإن الاطالة كانت متعمدة لتؤرخ للمصر ، وتبين ظروف اختياره وكيفية بنائه ، وما حدث فيه من تطور وتوسيع في فترة وجيزة . ولا شك ان شكل البصرة بقلبها دار الامارة والمسجد والديوان والسجن والحمامات والرحبة يؤكد ما ذهب إليه من قبل من ان البصرة مصرت على نمط المدينة ، وان وظيفتها هي وظيفة المدينة ، مدينة الرسول ﷺ . وقد رأيت كيف ان أثر التربية التي أتت مع الإسلام في المدينة قد اثمرت وآتت أكلها . فها هو زياد الصبي ذو الذؤابة يولى

قسم الغُنْم ويؤجر عليه درهمين في اليوم لأنه لم يكن أحد يعرف الحساب غيره . ثم ها هو الخليفة عمر يعمل على توليه أهل المدر أمور المسلمين مفضلا اياهم على أهل الوبر . وها هي البصرة بمسجدها الفسيح الجميل كأنه عمل شيطان . وها هي المدينة بقرائها وعلمائها وزهادها ومتصدقيها . والحديث هذا عن البصرة في أوائل العهد الأموي ولما تهدأ حركة الفتوحات بعد ، أي ان طابع العسكر أو الحاضرة الحامية كان الأغلب عليها ولكنها عسكر للإسلام وعلمائه وعلومه . وبموقعها ذي البعد مع القرب من قلب بلاد العرب في الحجاز ، والقرب مع البعد من العالم المفتوح ،لم تكن البصرة آنذاك الا مدينة عربية اسلامية خالصة ؛ صلتها بالعالم المفتوح تتحكم فيها هي أكثر مما يتحكم فيها العالم المفتوح . نعم كانت تعيش على غُنْمٍ من العالم المفتوح وتعتمد على عمالة وافدة منه من الموالي اساري الحرب . ولكنها كانت في حالة عزة ومنعة وغلبة . دينها الذي يسود . حكمها الذي يطاع . لغتها التي تنتشر ، باسم الدين وباسم المصلحة للعاملين .

ولقد لحظت كيف كان التغير الديمغرافي للمدينة ، يحدث تغيرات كمية ، وكيفية ، ونوعية في المجتمع . يدل ذلك ما ذكر من اعداد المقاتلة واسرهم حوالي ٢٠٠,٠٠٠ نسمة أيام خالد بن عبد الله القسري . ويشير إلى ذلك ما حدث من توسعة للمسجد . هذا من جانب الكم . لكن ما يهم اصلاً في هذه الورقة هو جانب الكيف . البصرة مجتمعها يتحضر مع الزمن . البصرة مجتمعها القبلي ينصهر في بوتقه المصر الجديد بوتقه الإسلام ، بوتقه الفتح . البصرة مجتمعها يتعلم ويعلم . ويتنوع بين العرب وغيرهم . وفي المسجد كنت تجد الراوي للسيرة والمغازي والفتوح وأيام العرب ، ومن يسمع إليه من العامة ـ وكنت تجد القارىء ومن يستمع إليه من الحفظة . وكنت تجد في الداخل الفقهاء يتجادلون فقد حدث في مسيرة الأمة احداث جسام ولما ينته عهد الراشدين بعد . . . انها الفتنة الكبرى ، وما تبعها من ظهور الفرق ، وتطور علم الكلام ، وقيام المدارس الفكرية المختلفة من الفكر الإسلامي العربي في ما تعورف على وصفه بمدرستي النقل والعقل . ولا يخفى على أحد أنه لا نقل بلا عقل ولا عقل بلا نقل . ولا خلاف على ان المرتكز

الأساسي لكل مدارس الفكر الإسلامي هو القرآن والسنة ، وان رواية المصحف قد تثبتت في عهد عثمان باصدار مصحفه الامام الذي وزع على الأمصار حتى لا تختلف قراءات المسلمين . ولم لا يضاف إلى هذا تلك الرواية عن الصحف التي رفعت في معركة صفين مشيرة ان لا حكم الا الله ، ومؤكدة تداول المكتوب من صحائف القرآن من المقاتلة وانتشارها . ولم لا يشار إلى تعريب الدواوين الذي تم مع تعريب السكة أيام الخلافة الأموية ، مما يؤكد ان تعلم اللغة العربية ، واتقان كتابتها وقراءتها والتعامل معها وبها قد تخطى العرب إلى غيرهم من المسلمين الجدد وإلى الذميين .

إن المدرسة العقلية الإسلامية العربية اذن مدرسة أصيلة ، ثبتت بين ظهراني الجماعة المسلمة في فترة متقدمة من تاريخها ، استجابة لمعطيات اصيلة في المجتمع نفسه منذ عهد الراشدين . ولم يكن ازدهارها في الأمصار الا نتيجة ان الأمصار أصبحت الوعاء المتجدد للمجتمع المسلم . وقد لعبت الأمصار البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط والقيروان وغيرها ، دورها في حركة تغيير ذاتها وتغيير العالم المفتوح بوعي واقتدار . كانت دولة الإسلام العربية هي المهيمنة على كل شيء فنفذت روح الإسلام والعربية إلى كل شيء . وبيت بشار بن برد المشهور :

ارفق بعمر إذا حركت نسبته فإنه عربي من قواريـر

لا يحمل فقط السخرية ممن يدعي نسبا عربيا وهو ليس بعربي ، وانما يشير أيضاً إلى مجتمع أصبح فيه ربما الكل يدعي نسبا عربيا . وبشار شاعر مخضرم ، وجذور ما أشار إليه انما نبتت في ما سبق عهد العباسيين .

نختم الملاحظات عن البصرة بما ذكره ياقوت من وصف خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان[٢٤] :

« يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشَيُوط والشَّيم ، ويجيء هذا بالظبي وبالظليم . ونحن أكثر الناس عاجا وساجا وخزا وديباجا . وبرذوننا هملاجا ، وخريدة مغناجا . بيوتنا الذهب ونهرنا العجب . أوله الرطب وأوسطه العنب ، وآخره القصب » .

« الرشيد يقول نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة » .

« المنسوبون إليها من أهل العلم لا يحصون . وقد صنف عمر بن شيبه وأبو يعلى زكريا الساجي وغيرهما في فضائلها مجلدات » .

نعود للنصوص التي أوردها الطبري في تمصير الكوفة فنجد ان الطبري الذي أورد خبر تخطيط الكوفة أول ما أورد من أخبار عام ١٧ الهجري تحت عنوان : « ففيها أختطت الكوفة وتحول سعد بالناس من المدائن إليها في قول سيف بن عمر وروايته »[٢٥] .

« سبب من تحول من المسلمين من المدائن إلى الكوفة » .

« قالوا كتب عمر إلى سعد ، انبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فكتب إليه ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة . فكتب إليه ان العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان . فابعث سليمان رائدا وحذيفة ، وكانا رائدى الجيش فليرتادا منزلا بريا بحريا ، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر ولم يكن قد بقى من أمر الجيش شيء إلا وقد أسنده إلى رجل . فبعث سعد حذيفة وسلمان ؛ فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار . فسار في غرب الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة . وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة . والكوفة على حصباء . وكل رملة حمراء يقال لها سهلة **وكل رمل وحصباء هكذا مختلطين فهو كوفة** . فأتيا إليها وفيها ديرات . دير حرقه (بنت النعمان) ودير أم عمرو ودير سلسلة ، وخصاص خلال ذلك . فأعجبتهما البقعة . فنزلا وصليا . وقال كل واحد منهما « اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما اقلت ، والريح وما ذرت ، والنجوم وما هدت ، والبحار وما جرت ، والشياطين وما اضلت ، والخصاص وما أخبت ، بارك لنا هذه الكوفة واجعله منزل ثبات . ورجعا إلى سعد بالخبر .

فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة ، في المحرم سنة ١٧ . وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران . وكان بين قيام عمر واختطاط

الكوفة ثلاث سنين وثمانية أشهر . اختطت سنة أربع من امارة عمر في المحرم سنة ١٧ . وأعطوا العطايا بالمدائن في المحرم من هذه السنة قبل ان يرتحلو . وفي بهر سير في المحرم سنة ١٦ » .

ولا يترك الطبري أخبار الكوفة دون ان يورد ما كان من أمرها من تطور في عمرانها وسكانها وحياتها فيقول[٢٦] .

« لما نزل أهل الكوفة واستقرت بأهل البصرة الدار ، عرف القوم أنفسهم وثاب إليهم ما كانوا فقدوا . ثم ان أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب . واستأذنوا فيه أهل البصرة . فقال عمر العسكر أجد (أشد) لحربكم وأذكى لكم وما أحب أن أخالفكم . وما القصب قالوا اليكرش إذا رُوِيَ قَصَّب فصار قصبا . قال فشأنكم . فأبتني أهل المصرين بالقصب .

« ثم ان الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة . وكان أشدهما حريقا الكوفة . . . فبعث سعد منهم نفرا إلى عمر يستأذنونه في البناء باللبن . فقدموا عليه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم . وكانوا **لا يدعون** شيئا **ولا يأتونه إلا أمرُّوه فيه** . فقال افعلوا ، **ولا يزيدن أحدكم على ثلاث ابيات ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة** . فرجع القوم إلى الكوفة بذلك . وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بذلك » .

« قال وعهد عمر إلى الوفد وتقدم إلى الناس **الا يرفعوا بنيانا فوق القدر** . قالوا **وما القدر ؟** قال **ما لا يغريكم من السرف ولا يخرجكم من القصد** » .

وعن التخطيط للكوفة . . . وادارتها يورد الطبري[٢٧] .

« . . . **أخبره بكتاب عمر في الطرق أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ذراعاً ، وما بين ذلك عشرين ذراعاً (وللأزقة سبعة أذرع) . . فأول شيء اختط بالكوفة المسجد** . فوضع في موضع أصحاب الصابون والتمارين بالسوق فاختطوه . ثم قام رجل في وسطه ، رام شديد النزع ، فرمى عن يمينه ، فأمر من شاء ان يبني وراء موقع ذلك السهم ، ورمى من بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء ان

يبني وراء موقع السهمين . فترك المسجد في **مربعة** خلوة من كل جوانبه ، وبنى **ظلة** في مقدمة ليست لها **مجنبات** ولا مواخير . والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا . وكذلك كانت المساجد ما خلا المسجد الحرام ، فكانوا لا يشبهون به المساجد تعظيما لحرمته . **وكانت ظلته مائتي ذراع على اساطين من رخام كانت للأكاسرة ، سماؤها كاسمية الكنائس الرومية** . . . وأعلَمُوا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه أحد ببنيان . وبنوا لسعد دارا بحياله بينهما منقب ما ئتي ذراع . وجعل فيها **بيوت الأموال** . وهي **قصر الكوفة** اليوم . بنى له ذلك روزبة من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة . . .

وكان أن تعرض بيت المال للسرقة فكتب عمر إلى الوالي « انقل **المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار ، واجعل الدار قبلته فإن للمسجد أهلا بالنهار وبالليل وفيهم حصن لمالهم** . . . » .

« **كانت الكوفة اعشارا** فرجحت بعضها بعضا ، فصارت **اسباعا** في عهد معاوية **حيث ربَّعهم** زياد . . . » .

« قال عطية بن الحارث قد عرفت **مائة عريف** ، وعلى مثل ذلك كان أهل البصرة . وكان **العطاء** يدفع إلى **أمراء الأسباع وأصحاب الرايات** . **والرايات على ايادي العرب** ، فيدفعونه إلى **العرفاء والنقباء** و **والأمناء** فيدفعونه إلى أهله في دورهم . . . » .

عن التلاحم بين الأمصار وتساندهم ومدها المسلمين عند الحاجة يورد الطبري عن عمر (رضي الله عنه) قوله :[٢٨] .

« جزى الله أهل الكوفة خيرا . يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار » وقد عني عمر (رضي الله عنه) بذلك مد الكوفة أبا عبيدة وهو في الجابية يواجه الروم . وكان عمر (رضي الله عنه) قد قدم الجابية وقوله ذلك كان بالجابية . ويورد الطبري قول عمر (رضي الله عنه) :

« الكوفة رمح الله ، وقبة الإسلام ، وجمجمة العرب ، يكفون ثغورهم ،

ويمدون الأمصار فقد ضاعت مواريث أهل عمواس فابدأ بها . . . » وكان عمر قد زار الشام أربع مرات مرتين في عام ١٧هـ .

يورد ابن كثير خبرا هاما عن سياسة عمر التي أراد عماله في الأمصار أن يسيروا عليها فيذكر :

« وبنى لسعد **قصر قريب من السوق** . فكانت **غوغاء** الناس تمنع سعدا من الحديث ، فكان يغلق بابه ويقول سكن الصويت . فلما بلغت هذه الكلمة عمر بعث محمد بن مسلمة فأمره إذا انتهى إلى الكوفة ان يقدح زناده ويجمع حطبا ويحرق باب القصر ثم يرجع من فوره . فلما انتهى إلى الكوفة فعل ما أمره به عمر ، وأمر سعداً ألا يغلق الباب على الناس ، ولا يجعل على بابه أحدا يمنع الناس عنه فامتثل ذلك سعد . . . واستمر سعد بعد ذلك في الكوفة ثلاث سنين ونصف حتى عزله عنها عمر من غير عجز ولا خيانة . . . » .

وثمة نص مهم آخر أثبته الطبري يوضح صلة الأمصار بالحفاظ على العروبة والإسلام . والخبر متعلق ببني تغلب .

« فعاقدوا عمر على بني تغلب فعقد لهم ان من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن أبى فعليه الجزاء وإنما الاجبار من العرب على من كان في جزيرة العرب . فقالوا اذن **يهربون ، وينقطعون ، فيصيرون عجما** فأُمُرْ اجمل الصدقة . فقال ليس الا الجزاء . وقالوا نجعل جزيتهم مثل صدقة المسلم ففعل . . . » فهاجر هؤلاء التغلبيون ومن اطاعهم من التمريين والاياديين إلى سعد بالمدائن وخططوا معه بعد بالكوفة ، وأقام من أقام في بلاده على ما أخذوا لهم على عمر ، مسلمهم وذميهم . . . » .

لا بد أن بعض هذه النصوص المختزلة المنتقاة قد لفتت النظر . قصة بني تغلب أهل عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة التي الهت بني تغلب :

الهى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

« اذن يهربون وينقطعون ويصيرون عجما » هكذا قال النص . وهكذا كانت

الأمصار مثابة للفاتحين المسلمين ومئولا للعرب حتى لا ينقطعوا فيصيروا عجما . « الكوفة رمح الله وقبة الإسلام وجمجمة العرب . يكفون ثغورهم ويمدون الأمصار » . وهكذا كانت الأمصار تمارس رسالتها المركبة بما أرضى الخليفة عمر فقال « جزى الله أهل الكوفة خيرا » . وهل كان يرضى عمر (رضي الله عنه) إلا حسن العمل مع غاية الجهد !

إن حركة التمصير الأولى مع تلاحقها ، فكلها حدثت في عهد عمر (رضي الله عنه) مثل حركة الفتوحات مع سرعتها ، فجلها حدث في ذات العهد عهد عمر (رضي الله عنه) يمكن ان ينظر إليها كتتويج لحركة بدأت منذ عهد الرسول ﷺ ، ليس فقط عندما بعث بالرسل والوفود داعيا إلى الله في جزيرة العرب وخارجها ، وانما أيضاً بما جيش من جيوش لمحاربة الروم تأكيداً لحق الجماعة ودولة المدينة في التبليغ فكانت مؤتة الرمز . ولا شك ان الرسول ﷺ كان يعلم أنها كانت رمزاً . من هنا يمكن ان ننظر إلى التنظيم والتنغيم في حركة الفتح وحركة التمصير ، في ذلك التنسيق الذكي الذي قاده عمر (رضي الله عنه) من المدينة متحكما في كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بشئون الإسلام والمسلمين ، ومسئوليته نحوهم . من هنا تبدو أهمية هذه الفترات على تقاربها في حركتي الفتح والتمصير . وفي هذا يكمن سر ان الأمصار اريد لها الا ينقطع أهلها وهم مادة العروبة فيصيروا عجما . وعند الفتح ، وإلى وقت ليس بالقصير ، كان المسلم هو العربي . وأريد لها الا تذوب في عالمها المفتوح فتفقد هويتها ، وانما تعمل على ان ينفتح العالم المفتوح على هويتها ، لغتها ، علومها ، ذوقها ، حكمها فيكون فتح القلوب والعقول بعد فتح البلدان . ولا تنسى في هذا المجال سياسة عمر (رضي الله عنه) التي رفضت تقسيم سواد العراق على المقاتلة ليكون فيئاً لكل المسلمين وقد أغنتهم تلك السياسة عن الكثير .

وإذا كان قد أشير إلى المدينة المثل مدينة الرسول ﷺ وكيف ان دورها ، شكلاً وموضوعاً ، قد انتقل إلى الأمصار ، وان الأمصار كان من أهم أدوارها نقل العرب من البداوة إلى الحضارة وزيادة المسلمين ايمانا مع ايمانهم وعلما مع علمهم . وان

سماحة الإسلام على التسامح هي التي كانت تسود .

وأشير إلى ان سكان الأمصار كانوا مع مرور الزمن يتخلطون اعراقا وأنسابا ويتداخلون ويتعاملون بروح جديدة في ظروفهم الجديدة . ويكسبون من كل ذلك هوية جديدة ، فيصبح من في البصرة بصريا ، ومن في الكوفة كوفيا ومن في مصر مصريا ، كل له ما يميزه عن الآخر في العالم الإسلامي العربي الموحد في تنوعه . وقد جاء في النص ان اعشار الكوفة أصبحت اسباعا ، واسباعها غدت ارباعا في وقت وجيز منذ تأسيسها في عهد زياد . لا بد مع كل هذا ومع ما استهل به من نفي بداوة الرسالة وبداوة الفتح ان يضاف ما يمكن ان يسمى بالعامل أو العنصر اليمني في تاريخ الفتوحات ومن ثم في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية . ولعل البعض يذكر في هذا الخصوص ما روى عن الرسول ﷺ « الحكمة يمانية » . ولربما يتذكر بعض قصة الراشد عمر (رضي الله عنه) مع « اويس القرني » الراعي الصالح مستجاب الدعاء . (في مصر تغلب الألف عينا فيصير عويس) .

كان سير الفتوحات في العراق ، ومن ثم في الشام ومصر ، منسجما مع حركة حروب الردة التي انتهت باليمامة . وكان قد اشترك مع المسلمين القادمين من الحجاز العديد من أهل اليمن في تلك الحروب . وبانتهاء حروب الردة انتصرت الجزيرة على انقساماتها فدخلت كلها في صفوف المقاتلة المتجهة للفتح . كان هذا يعني كسب جنوب الجزيرة ، بلاد اليمن السعيدة ، وبلاد الخليج المنتهي بالبصرة ، برصيده البشري ، والمادي ، والحضاري للإسلام ولحركة الفتح . للتمصير والعمران والادارة ، والتعليم والفكر ، وللحرب والسلم ، للاقتصاد والزراعة والتجارة وركوب البحر والصناعة ، في العالم الإسلامي العربي الجديد ، في وقت أصبحت فيه الأمصار تشكل تجمعات لكل عرب الجزيرة شمالها وجنوبها . لقد كانت قريش من قبل تمسك باحدى كفتيها الكثير من ذلك الرصيد اليمني الخليجي وهي تمارس رحلة الشتاء والصيف . وها هي الآن تقود كل عرب الجزيرة باسم الإسلام وتحت راية دولة الإسلام لتحقق واقعا جديدا للعرب والعجم ممن دخلوا في الإسلام أو أصبحوا تحت راية دولته .

إن مكانة اليمن السعيدة في تاريخ الحضارة الإنسانية لا ينكره أحد . يكفي هنا الاشارة إلى كتاب « سابتينو مصكاتي » **الحضارات السامية القديمة** »[٢٩] . أما العنصر اليماني في قضايا الحضارة الإسلامية العربية لا سيما في جوانب الادارة فقد تعرض له قويتاين في « **دراسات عن تاريخ الإسلام ونظمه** » في دراسته عن « **أصل الوزارة** » حيث يرده إلى التراث السامي اليمني[٣٠] . وإذا كان الحديث عن الموروث الحضاري للعالم المفتوح ودوره في الحضارة الإسلامية العربية فلا يخفي ان الأمصار الأولى كلها من البصرة حتى الفسطاط والقيروان كانت قد تأسست في عالم رغم تبايناته هو من صميم العالم السامي . هذه الأمصار البصرة ـ الكوفة ـ الجابية ـ دمشق ـ الفسطاط ـ القيروان وكلها قد خطت على نسق واحد ، معالم لهلال هو جزء من دائرة تدخل فيها أرض النبوة كلها والحبشة كما يدخل فيها الخليج والمحيط . هذه الدائرة هي دائرة العالم السامي في التاريخ القديم والحديث . ولقد كان ذلك العالم منقسما على نفسه بين الدولتين العظميين في العالم القديم دولة الفرس ودولة الروم ، سياسيا ، واقتصاديا ، وحضاريا ، ودينيا ، ثم جاء الإسلام وقامت دولته لتخلق من ذلك العالم وحدة سياسية واقتصادية ودينية وحضارية . ولقد كان فضل نجاح هذه التجربة للأمصار الأولى على وجه الخصوص ، ولما قامت من بعدها في كل العالم المفتوح ، إذ ان الفاتحين كانوا دائما ما يعسكرون خارج العواصم القديمة ، لتقوم مع المعسكر مدينة جديدة تحمي الدولة ، وتنشر الدين واللغة والمثل الإسلامية العربية .

الحديث عن دور الأمصار يطول ، لا سيما وانها كلها لا تزال معنا في عالمنا الحديث . وإذا كان البعض يذهب لأوربا أو أمريكا فيؤخذ بتخطيط المدن ودورها الحضاري ومعالمها ، **قلب المدينة** مثلا ، أو في تاريخ الاستعمار وأماكن سكن الحكام والموظفين **الـ جي آر ايه** ، فليتذكر ان الأمصار الإسلامية كان لها قلبها وكان لها معالمها وكان لها دورها الذي وفقت فيه أكثر مما وفقت أية مدينة استعمارية كانت روحها غير روح مدن الإسلام . وبالنسبة للحضارة الإسلامية العربية التي تأثرت النظرة إليها بما حدث مع العباسيين من حجب أو تشويه لما انجز على أيدي

الأمويين وفي أيامهم ، أو ما بولغ في تقديره من أثر غير عربي ، لا سيما والأنظار دوما ما تتجه لعصري الرشيد والمأمون وما بعدهما ، لا بد من تذكر أن حياة بغداد الفكرية انما قامت على رصيد الأمصار الأولى الفكري الديني والأدبي واللغوي والفلسفي والاجتماعي . فالموطأ استكتب له المنصور الامام مالك وهذا يمثل المدينة ويمثل ما سمى بمدرسة الحديث والنقل . والمعتزلة الذين اعتمد عليهم المأمون في سياسته الدينية نشأت مدرستهم في البصرة حول علم من اعلام السنة هو الحسن البصري (رضي الله عنه) . والامام أبو حنيفة النعمان خلفيته الفكرية كوفية بصرية وهي محسوبة كبداية لمدرسة أهل القياس والرأي . وقد هيمنت الحنفية على القضاء العباسي لا سيما بعد أبي يوسف وكتابه « الخراج » الذي ألفه استجابة لطلب من الرشيد . وبشار بن برد أصله بصري وكذلك الجاحظ . ولقد لعبت مدرسة الكوفة دورها أيضاً مع مدرسة البصرة في توجيه الفكر البغدادي واثرائه . أنظر في هذا السبيل دراسة شارل بلا الممتعة عن « المجتمع البصري وتكوين الجاحظ » . أو راجع بعض ما جاء في مقالات سير هاميلتون جيب المجموعة في كتابه « دراسات عن الحضارة الإسلامية »[٣١] .

هوامش ومراجـــع

١ ـ يولبوس فلهاوزن : **الدول العربية وسقوطها** : ترجمة العش أو أبو ريدة . أنظر المقدمة .

٢ ـ المقصود بالعالم السامي الحامي المفتوح هو مع جزيرة العرب ، الشام ومصر وافريقية والمغرب . من المعروف ان المجموعات السامية كانت تسوح في غرب اواسط آسيا وغربها وشمال افريقية وشرقها وايضاً فيما عرف ببلاد السودان من قديم الزمان قبل الإسلام ومن ثم قبل الفتوحات الإسلامية . يؤكد بتلر في كتابه « **فتح العرب مصر** » وجود مجموعات من القبائل العربية في حوف مصر ساعدت في حركة الفتح . لقد ساعد وجود العرب في هذه المناطق حركتي الاسلمة والتعريب لا سيما وان العرب كانوا يختلطون بالعناصر الحامية والسودانية ويتزاوجون معهم من قديم الزمان .

٣ ـ القرآن الكريم : الروم ٢٢ .

٤ ـ القرآن الكريم : البقرة ٢٥٦ .

٥ ـ القرآن الكريم : الكهف ٢٩ .

٦ ـ Planhol, X. de: **The Muslim World,** N. York 1959.

٧ ـ شارل بلا : « **المجتمع البصري وتكوين الجاحظ** » ، مترجم من الفرنسية .

٨ ـ Hourani, A. & Stern: **The Islamic City,** Oxford 1970.

٩ ـ أحمد إبراهيم الشريف : **مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول** ، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦٥م .

١٠ ـ أحمد إبراهيم الشريف : المقدمة ص . و ز .

١١ ـ الجاحظ : **الرسائل الأدبية** ، مكتبة الهلال ـ بيروت ـ ص ٢٤١ .

١٢ ـ هامش ١٠ أعلاه .

١٣ ـ ابن الديبغ الشيباني : حدائق الأنوار ومطالع الأسرار . الدوحة ـ قطر ١٩٨٢م ـ ص ٤٧٥ .

١٤ ـ مونتجومري واظ : أنظر كتابه : **محمد في مكة و محمد في المدينة** .

١٥ ـ أحمد إبراهيم الشريف : رقم ٩ أعلاه . راجع المقدمة .

١٦ ـ الجاحظ : البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار الجبل ـ بيروت ـ لبنان ـ ج ١٠ ـ ص ١٨ ـ ١٩ .

١٧ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ ، طبعة دار صادر ـ بيروت .

١٨ ـ في قراءة « اهبطوا مصر » . وبهذا تكون مصر قد ذكرت في القرآن الكريم خمس مرات .

١٩ ـ المادة عن الأمصار في كتب البلدان وكتب التاريخ كثيرة . وهناك مؤلفات ضخمة افردت لمصر واحد مثال ذلك **تاريخ بغداد** للبغدادي وغيره .

٢٠ ـ هامش ١٦ أعلاه .

٢١ ـ ياقوت الحموي : **معجم البلدان** مادة بصرة .

٢٢ ـ ياقوت الحموي : **معجم البلدان** مادة بصرة .

٢٣ ـ ياقوت الحموي : **معجم البلدان** مادة بصرة .

٢٤ ـ ياقوت الحموي : **معجم البلدان** مادة بصرة .

٢٥ ـ الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** . أنظر عام ١٧ هـ .

٢٦ ـ الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** . أنظر عام ١٧هـ .

٢٧ ـ الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** . أنظر عام ١٧هـ .

٢٨ ـ الطبري : **تاريخ الرسل والملوك** . أنظر عام ١٧هـ .

٢٩ - Moscati, S.: **Ancient Semetic Civilizations**

٣٠ - Goitein, D.S.: **Studies on Islamic History and Institutions** LEIDEN, 1986.

٣١ - Gibb, H.A.R.: **Studies on the Civilization of Islam** London 1962.